قصص من الأدب الروسي الرفيع :

الملاك . . .

للكاتب الروسي الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

[ولد تولستوى — فيلسوف روسيا العظيم — فى ٢٨ أغسطس سنة ١٠٢٨ من عائلة عريقة « أرستقراطية » وكان شغوفاً بالعلم ، مكباً على الأدب محباً لممسكة . . . فلما رأى ذلك البؤس الذى يحيط بالفلاحين . . وشاهد تلك التعاسة التى تكتنف العمال ... انبثق فى فؤاده نور الحق ، وتفجرت فى قلبه عيون الرحمة والعطف ، فعقد فى نفسه ألا يهدئ باله حتى يقوم على إسعادهم ، ولا يسكن فؤاده حتى يعمل على خيرهم .

وظل — طيلة حياته — يكافح فى سبيلهم ، فعاش فى أملاكه يزرعها ويقسم ما تغله بين الفلاحين ، ثم لم يلبث أن تخلى عنها ووزعها بينهم . . . واتهم — آخر أيامه — بالإلحاد . . فاختفى ردحاً من ا من .

ويعد « تولستوي » القطب الأول والكاتب الأكبر فى روسيا . . . وتعد كتبه « الأناجيل الأولى » للثورة المشفية ، التى بذر بذورها . . . غير أنه لم ير الغرس وهو يستوى على ساقه ، فيهز الروسيا ويهز العالم أجمع . . . فقد قضى فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٠ .

وما زالت كتبه — وقد شاعت فى أرجاء العالم — تظفر بكل إعجاب وإجلال . ومنها « البعث » و « القيامة » و « الحرب والسلام » و « أين المخرج » . . .

وهذه القصة — التى نبسطها اليوم على صفحات « الرسالة » الغراء — من أروع الأمثلة على ما كان يفيض به تولستوى من الحس العميق والوصف الدقيق لحياة عائلة من تلك الطبقة التى كرس حياته لرفعتها ونصرتها . .

ولقد دعتنا الضرورة إلى تحوير العنوان التى عرفت به هذه القصة وهو « What Men Live By » أى « بماذا يعيش الناس » ؟] « م . جميل »

كان الإسكاف « سيمون » يعيش مع زوجته ، وأبنائه فى شظف من العيش يسكنون كوخاً صغيراً مقفراً ، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح ... وكان « سيمون » يكسب رزقه من عمله فى جهد وجحد ، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته ، وما أندر الخبز فى ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حيناً فى الشتاء ، حتى رثّت وبليت ، وقد تقضّى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى ، فما أن أقبل الشتاء ، حتى أمكنه أن يقتصد بعضاً من المال : ثلاث « روبلات » مخبأة فى صندوق لزوجته ، وخمس « روبلات » وعشرين « كوبك » يدين بها بعضاً من زبائنه !

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية ، فارتدى « معطف » زوجته على قميصه ، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك ، ووضع الثلاث « روبلات » فى جيبه ، واقتطع لنفسه عصاً يتوكأ عليها ، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر ...

وفى طريقه راح يحدث نفسه : « سوف أحصل على الخمس « روبلات » وأضيفهما إلى الثلاث « روبلات » فيصير ما معى كافياً لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء ! »

ولما بلغ القرية بعد لأى طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار ، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله فى الأسبوع القادم ! وطرق « سيمون » باب فلاح آخر ، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال ، وسيدفع له كل ما معه « عشرين كوبك » قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه !

فحاول « سيمون » أن يشترى « صوف المدرعة » بما معه ، وبقرض يؤديه بعد حين ، فرفض البائع قائلا فى صوت ساخر : « إيتنى بالمال ، وسوف يكون لك ما توده من الصوف ، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه ! »

فأحس سيمون بالخور يسرى فى جسده ، والقنوط يتسرب إلى فؤاده ، فقام إلى حانة حيث تبلّغ كأساً من الخمر بعشرين « كوبك » ، وقفل راجعاً إلى داره !

كان للخمر أثرها فى سيمون ، فسرى الدفء فى عروقه ، وزادت من قوته ونشاطه . فراح يفكر : « إنى أحس بجوانحى تختلج دفئاً وحرارة ، مع أنى لست مرتدياً مدرعة من الصوف ، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسرى حرارتها فى

عروق ، فلست بحاجة لمدرعة من الصوف أقي بها جسدي زمهرير الشتاء ! ! »

ليت زوجتي ترتشف قليلا من الخمر . فتحس ما أحس ! ! صه ... ويلك ... أتود أيها الرجل أن تقضي عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضاً من الخمر ... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل ..! ياله من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم !! . لست أبالي شيئاً ... ولكن زوجتي سوف تكتئب ويؤلمها أني عدت دون صوف المدرعة !. ليس على من جناح !! ... فقد طلبت حقي فأنكره واحد . وأعطاني الآخر عشرين « كوب » ... هه ... وماذا أنا فاعل بها .؟! لست أدري غير أن أشرب بها ... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيوان ... ثم يبخل على بحقي الذي أعمل سحابة يومي وجنحاً من ليلي كي أظفر به ... فإذا ما انتهيت أنكروه على . يا للعار . إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث « روبلات » كل أسبوع للخبز وحده ... فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أكل فأبيت على الطوى ! . وهل أملك غير ذلك ؟ ! ومن أين آتي بالنقود ؟ ! أمن « هؤلاء » الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا باللظة .!! »

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه . حين أدرك — في سيره — الكنيسة في منعطف الطريق . فرأى جسداً كالثلج في نصاعته !. فراح ينعم النظر دون أن يتحققه أيكون ثوراً !. لا ليس شبيهاً بالثور .! إن له رأساً يشبه رأس الإنسان ! بيد أنه ناصع البياض ! ... »

واقترب منه حتى أمكنه أن يجلي الأمر ! . وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار ... يجلس إزاء الكنيسة في سكون يدفع الرهبة إلى القلب .. فطار فؤاده هلعاً ، وتلبسه الخوف فزعا : « لا بد أن أحدا قد قتله .. وخلفه هنا... سوف أمسك علي فضولي أو أصاب بأذى ... »

وأطلق في سبيله ولكنه التفت إلى ماوراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه ... فراع ذلك سيمون وزاده من جزعه . « أأعود إليه أم أنطلق ؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضيني - بل يجلب الضر إلى نفسي فما وجد تحت إلا لسوء .. ولعله يثب علي ويخنقني . وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك ... وماذا أنا فاعل بإنسان عار ؟! لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه . دعه فللسماء شأن معه ! » وأسرع سيمون في خطاه لا يلوي على شيء . بيد أن ضميره أخذ يؤنبه . فتوقفت خطاه . وأخذ يهس في حيرة ويهمهم في وجل : « ماذا أنت فاعل يا سيمون ؟ ! هب أن الرجل بلفظ آخر نفسه ! . ألا تتقي الله في فرارك منه ورغبتك عن عونه ! ! أأنت في وفر من المال حتى تخشى أن تسرق ؟! باللعار ياسيمون . ! » فانقلب آيباً إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق ...

* * *

دنا سيمون من الرجل الغريب ، وراح يجيل الطرف فيه .. فرآه شاباً على جمال وحسن ! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمداً ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف . فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه ، وألقى إليه بنظرة . كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب . فخلع حذاءه . وألقى عن نفسه رداءه . وقال في صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة : « ليس ثمت مجال للحديث !! . هيا إرتد هذا الثوب . » وأمسك سيمون بمنكبي الرجل ، وأعانه على النهوض ...

فلما نظر إليه — حينما انتصبت قامته — ألقاه ... مديد العود ... جميل الوجه ... فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم « سيمون » بخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب . فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال في نفسه : « إني أصلع ! . أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه ! . بل يحسن أن ألبسه حذائي ... » فأقر قبعته على « صلعته » وأجلس الرجل ، وجعل حذاءه في قدميه ... وهو يقول في جرس طيب عطوف « هيا . أيها الصديق . استشعر الدفاء ودع باقي الأمور تجري وفق مرادها أفي قدرتك أن تسير ؟! »

فنهض الرجل ونظر في امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون : « لماذا لا تتكلم ؟! إن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاي وإلا أحسست بوهن وخوار . فاعتمد على ساعدي ... »

وخطا الرجل فى تعب وجهد . وفى خلال السير رفع سيمون صوته قائلا :

« من أين أنت ؟! . »

— « لست من هذه البقاع! »

« كذلك حدست . فإنى أعرف القوم هنا .! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة !؟ »

« لست أدرى ! »

— أساء أحد معاملتك ؟!

— لم يتعرض لى أحد بسوء ؟ لقد عاقبنى الله ...

دون ريب ... هذا هو حكم الله . سوف تجد عيشاً ومأوى أينما ذهبت ! فأين تروم ! »

— لست أدرى ! . »

فتولى سيمون الدهش . فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب . ولكنه لا يعلم عنه شيئاً .

« من يدرى ما سوف يحدث !! » والتفت إلى صاحبه وقال :

« حسنا ! . تعال إلى دارى على الرحب والسعة .! »

هبت الريح عاتية ، فياضة بالصقيع . فسرت القشعريرة فى جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه ... وراح يتحدث إلى نفسه : —

« والآن ، وقد ذهبت الخمر ، أعوزنا صوف المدرعة ، لقد انطلقت اليوم كى أعود بالصوف ، فما عدت بالصوف ولا ردائى أنا ، وفوق ذلك أتيت معى برجل عار ! سوف تستاء « مترونا » من ذلك ! »

وحينما جالت بفكره « مترونا » زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلل فى جوانحه ، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب ونظرته إليه فى امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحاً ...

* * *

نهضت « مترونا » زوجة سيمون ... ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلى خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة ... قطعت الأخشاب .. وحملت الماء ... وأطعمت الصغار ... وتناولت هى وجبتها ... وجلست ترقب أوبة زوجها ... وراحت تسائل نفسها :

« أيكفى الخبز ... أم عليها أن تعمل بعضاً منه الآن ... لو أن « سيمون » تناول طعامه فى المدينة ... ولم يكن فى حاجة للخبز فى العشاء ... فسوف يمتد أجل الخبز يوماً آخراً ... لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزاً ... وسوف أدبر كل شىء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم ... » .. ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية فى مكان حرز ... وجلست ترتق ثياب زوجها ... وفى غضون ذلك راحت تفكر كيف يشترى زوجها صوف المدرعة كى تقيهما برد الشتاء ...

« آه ... لو أن البائع لا يخدعه ... أن زوجى لغرّ ... ! سهل على من يقوده ... إنه لا يخدع أحداً ... ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به ... ثمانى روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها ... ! كم كنا نرتعد برداً ونرتجف من الصقيع فى الشتاء الماضى ... وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون فى الذهاب ! ! وما عاد إلى الآن ... آمل أنه لم يذهب إلى الحانة ! ! .

ما كادت « مترونا » تردد هذه الخواطر فى ذهنها ... حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى الأمر ... فأبصرت رجليه : سيمون زوجها ، وشخصاً آخراً . عارى الرأس ينتعل حذاء زوجها !! لم تره من قبل ! . »

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر ... وليس عليه رداءه ... ولا يمسك بيده حزمة من الصوف ... أخذ مرجل غضبها يفور ...

وأفسحت لها حتى دلفا أمامها ، ثم تبعتهما ... ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها ... فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها ... فقالت فى نفسها « لعل السكر أخرسه وذهب بعقله ... »

وعبست بوجهها وقطبت جبينها ... ووقفت جوار « التنور » ترقب ما سوف يعملان ... !

وخلع « سيمون » قبعته ... وجلس على أحد المقاعد ... وكأن الحال يجرى على ما يرام .

— « هيا مترونا ! ! إن كان العشاء معداً ؟ ! فأتينا به ... ! »

فزمجرت « مترونا » كالقنبلة الغاضبة ... ولم تتحرك من مكانها

جوار التنور — فرأى سيمون يبادر الشر تلوح فى وجه زوجته ... فأراد أن يهدىء من روعها ويظهر أنه لم ير شيئاً ... وقدم لصاحبه كرسياً وقال له فى مرح « إجلس ودعنا نصيب شيئاً من الطعام ... ! هيا « مترونا » أما أعددت لنا شيئاً ؟ ! »

كانت نفس مترونا تلتهب غضباً وتغلى حنقاً فانفجرت قائلة :

— « بلى ... لقد أعددت الطعام ... ولكن ليس لكما ... ! يخيل إلى أنك أنفقت نقودك فى الشراب ... لقد ذهبت كى تحضر صوف المدرعة ... فما عدت إلا وممك شريد عار عربيد ... ليس لدى طعام للسكارى ... ! »

— « كفى مترونا ... أمسكى عليك لسانك ... ! يحسن بك أن تسألى أى إنسان هذا ؟ »

— بل يحسن بك أن تخبرنى ما ذا فعلت بالنقود ؟ ! »

فأخرج « سيمون » الثلاث « روبلات » من جيبه وقال : « ها هى ذى النقود .. لم يؤد « تريفنوف » ما عليه .. ! ووعدت زوجته بأنه سوف يدفع ... » فلم يهدىء هذا من غضب مترونا ... فهو لم يحضر الصوف ... بل أنه ألبس واحداً عارياً ثوبه وأتى به إلى بيته ... فاختطفت النقود من يده لتضعها فى مكان أمين وقالت لزوجها ... « ليس عندى طعام ... وما يقدورنا أن نطعم كل سكير عار فى العالم ... ! »

— قلت كفى مترونا خير لك أن تسمعى أى إنسان هذا — ! »

— « أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير ؟ ! لقد كنت أعرض عن الزواج بك لهذا ... ! »

* * *

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين « كوبك » ... وحاول أن يبصرها بالحالة التى وجد عليها صاحبه الغريب ... بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة ... وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاماً ... وراحت تتحدث وتتحدث ، وأخيراً أمسكت بسيمون وراحت تصيح :

« أعطنى ثوبى ... أنه الوحيد الذى أملكه ... ! وقد أعرته لك كى تحضر صوف المدرعة ... ناولنيه أيها الكلب الأجرب ... وليعبث بك الشيطان ! ! . »

فأخذ سيمون يخلعه ... ثم ناوله إياها ... فألقته على رأسها وهمت بالخروج إلا أنها توقفت ... ! وقد جال فى نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه ! أيمكنك أن تخبرنى أين عثرت « عليه » ؟ ! »

— هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه ... حينما أدركت الكنيسة وأنا فى سبيل العودة — أبصرته جالساً عارياً يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع ، فقد بعثنى الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى ، فما ذا كان على أن أفعله سوى أن أخلع ثوبى وألبسه إياه وآتى به معى ؟ فما كان له من مأوى ! ! ما الذى يدرينا كم كان يلاقى من العذاب الشديد ؟ لا تغضبى يا مترونا ، إن هذا ذنب غير مغتفر ، واذكرى أننا سوف نموت جميعاً يوما ما ! »

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتى « مترونا » ، ولكنها ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها ، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو جالس فى سكون ووداعة على مقعده ، يداه معقودتان على فخذيه ، ورأسه ساقط على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وجبينه مقطب ، كأن الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه !

فصمتت « مترونا » على مضض ... وقال سيمون فى صوت شاع فيه الرجاء والأمل : ألا تحبين الله يامترونا ؟ ! . »

* * *

فما سمعت « مترونا » هذه الكلمات ، وألقت طرفها ثانية إلى « الصاحب الغريب » حتى فاض قلبها إيماناً ... وراحت الرحمة تدب فى نفسها ... وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها ... !

فذهبت إلى « التنور » وأتت بالطعام ... ووضعت قدحاً على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من مخبئها ومعها سكينان وملعقتان ... وقالت فى صوت يفيض عطفاً . تفضل فتناول بعض الطعام ... !

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه . وفتت الخبز ووضعه فى المرق وراحا يأكلان .. وجلست مترونا فى جانب من المائدة ! ترقب الضيف فى نظرات فاحصة . فزاد عطفها عليه ورأفتها به .

وحينئذ أشرق وجه « الغريب » وأضاء . فكأنه البدر يرفل فى هالة بالسناء . . ورفع عينيه النجلاوين إلى « مترونا » ونظر إليها نظرة وديعة . وافترت ثغره عن ابتسامة حلوة عذبة ...

(يتبع)

مصطفى جميل مرسى

مطبعة الرسالة تقدم قريباً

الطبعة الثانية من كتاب :

في أصول الأدب

محاضرات ومقالات في الأدب العربي

بقلم الأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

سكك حديد الحكومة المصرية

جداول مواعيد القطارات لفصل الشتاء سنة ١٩٤٦/١٩٤٧

لقد شرعت المصلحة فى الاستعداد لإصدار طبعة الشتاء المقبلة من جداول مواعيد القطارات للتداولة بين آلاف الجماهير وذلك اعتباراً من أول نوفمبر سنة ١٩٤٦

وفضلا عن أهمية الإعلان فى الجداول المذكورة فإن المصلحة تتقاضى مقابل النشر فيها أجراً زهيداً فالصفحة الكاملة بستة جنيهات ونصف الصفحة بأربعة جنيهات

فاغتنموا الفرصة وسارعوا من الآن إلى حجز ما يروقكم من صفحات هذه الجداول نظراً إلى أن الإقبال على الإعلان فيها شديد

ولزيادة الاستعلام اتصلوا : بقسم النشر والإعلانات بالإدارة العامة بمحطة مصر